رواية ورواية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

قال محدثى :

« كنت فى ذلك الوقت غارقاً فى دروسى ، فقد رسبت ، كما تعلم ، فى الامتحان وأبيح التقدم له مرة أخرى ، فعدت من البلد ، ونزلت على أقربائى هؤلاء ، وشرعت أستعد لأداء الامتحان فى المواد التى أخفقت فيها ، وكانت أربعاً ، تضاف إليها ثلاث أخرى اخترتها طمعاً فى «المجموع» فعكفت على دروسى وأقبلت على تحصيلها . وما أكثر ما كنت أفنى ليلى بالسهر فى مراجعتها فكانت « سميحة » تزجرنى عن ذلك وتقول : إن سهر الليل يهدّ القوى ويكثف العقل ، وإن عمل النهار أوفر عائدة وأرفق بالجسم والعقل . وكانت هى قد فازت « بالبكالوريا » ولم تتلكأ عندها مثلى ووثبت منها الى كلية الطب . ولم تكن قد قضت فيها غير عام واحد ولكنها — مذ التحقت بها — أصبحت تتحدث عن الصحة والعلل وطبابها كأنها جالينوس . وكنت أحبها غير أن دروسى شغلتنى عنها ، وكانت معى فى البيت فلا داعى للشعور بالوحشة وفراغ الدنيا حول المرء . وكنت إذا تعبت أقوم فأتمشى فى البيت وأدور بالغرف — فما ثم غيرها — وقد أتلبث شيئاً عند سميحة وهى مستلقية على سريرها — أو على الأصح نأمة كقاعدة فوقه — وفى يدها قصة تزجى بها الفراغ وكانت تحب الروايات البوليسية مثلى فلا يفوتها شىء مما ينقل الى العربية فى هذا الباب . وأنا مثلها وعسى أن يكون هذا هو الذى دهورنى ، ولكنه لم يدهورها فلا أدرى ما علة إخفاق وسر نجاحها ؟ . لا تعترض !! إنى أعرف ما تريد أن تقول ، ولهذا أقول لك إنها ليست أذكى منى وإن كان لا يسعنى إلا أن أعترف أنها أمضى عزماً وأقوى إرادة وأقوم طريقاً الى غايتها حين تكون لها غاية . وما أظن بها إلا أنها أرادت أن أعشقها فعشقتها ، ولكن الذى يحيرنى أنها تأبى على راحة القلب واطمئنان البال ، ولا تنفك تظهر لى النفور من هذا الحب والكراهة له والزهد فيه . وأحسب أن هذه هى طباع المرأة ، فهى تعنى « أريد » حين تقول « لا أريد » .. ما علينا .. انتهى الامتحان واستطعت أن أنام مرتاحاً ووسعنى أن أدير عينى فيما حولى وأن أجعل لقلبى حظاً بعد طول الحرمان ، ولكن سميحة كانت تنفينى عن البيت وتقول لى إنى أتلفت صحتى فهى فى حاجة الى الهواء الطلق ؛ وكان هذا صحيحاً لا شك فيه ، ولكن هذه « الأستاذية » التى كانت تتكلفها معى كانت تثقل على نفسى . وكانت تخرج معى أحياناً ولكن كما يخرج المعلم مع تلاميذه الصغار الى حدائق الحيوانات أو مرصد حلوان ، فلا أشعر أنى مع الفتاة التى أحبها ، ولا أجد متعة أستفيدها من هذه الرحلات التى يطيب فيها الغزل عادة والتى كنت أمنى بها نفسى وأحلم . وقد قلت لها مرة ونحن فى « حديقة الأورمان » :

« يا ستى ما هذا الحال المقلوب ؟ »

قالت : « أى حال ؟ . مالك ؟ . »

قلت : « لكأنى أسير مع شرطى ! »

فلم تضحك — وكنت أظنها ستفعل — فغاظنى ذلك فقلت : « أليس حالاً مقلوباً أن نضحك فى المطبخ ونعبس فى الحديقة الحالية ؟ ؟ »

فسألتنى مستغربة : « المطبخ ؟؟ متى ضحكنا فى المطبخ ؟ »

فقلت لها بضجر : « لا تكونى حرفية ! ! إنما أعنى البيت وأنت تعرفين ما أعنى فلا تغالطى »

قالت : « إن البيت ليس من مرادفاته المطبخ »

فسكت ولم أقل شيئاً — وماذا عسى أن أقول ؟ — »

وحدث مرة أخرى وكنا معاً — على ما يبدو للناس ، أما فى الحقيقة فقد كان كل منا وحده — فضاق صدرى ، فقلت أرفّه عن نفسى بالغناء ، فرفعت صوتى وانطلقت أغنى :

« يا بت انا بدّى أبوسك بس أبوسك !

واطرب وأحظى بكؤوسك رق شوية ! »

فلم يرعنى إلا قولها : « ليس أضر من الخمر ولا أقتل »

فقلت : « يا ستى إن المراد بالكؤوس هنا الشفاه الرقيقة ، وبالخمر الريق العذب »

فقالت : « إخص ! ... »

فقلت مندهشاً : « إخص ؟ ؟ »

قالت : « إخص ! ... »

قلت : « طيب ! ... »

وهذا يريك من أى معدن صيغت سميحة ، ولكنى على هذا كنت أحبها حباً عظيما لأنى كنت واثقاً أن هذه قشرة نشرتها كلية الطب على صفحة معدنها الصافى ، وستزول ولا شك مع الأيام

وصح ظنى ، فقد كانت كما قلت لك تحب الروايات البوليسية حباً جماً ، وكان قد صدر منها أخيراً رواية طويلة فى مجلدين اسمها « السم فى الدسم » ، فاشتريتهما وغرقت فيهما — أعنى فى المجلد الأول — واستغنيت بهما عن هذه النزهات والرحلات التى لم أكن أفيد منها أى متعة ، بل كنت أفيد منها التنغيص

وكنت أخفيهما عن عينها مخافة أن تسطو عليهما ، وكانت الرواية قد نفدت بسرعة ، فلا سبيل إلى نسخة أخرى غير التى كانت معى إذا هى ضاعت ، فلا عجب إذا كنت قد حرصت عليها وضننت بها . ولا أكتمك أن نفسى حدثتنى أن أعذبها — أعنى سميحة — بعد أن أفرغ من الرواية وأعرف سر الجريمة ، وذلك بأن أخايلها بها وأحرك نفسها لها ولا أمكنها منها ، ولماذا لا أعذبها كما عذبتنى ؟ ثم إن تعذيب المرأة أحياناً لا يكون من القسوة ، فقد وجدت على ضآلة تجربتى وقلة خبرتى أنها تستحلى هذا — أعنى المكايدة إذا لم تخرج إلى الايلام ولم تجاوز الحدود المعقولة ... ومع ذلك من يدرى ؟ فلعلها تستعذب العذاب بلا قيد أو شرط ... لا أدرى !

وفى إحدى الليالى عدت من مأدبة كنت مدعواً اليها مع لفيف من إخوانى وأندادى ، أقيمت لتوديع واحد منا مسافر إلى انجلترا لاتمام تعليمه هناك ، فلما رجعت إلى البيت دخلت غرفتى وأنا أمنى النفس بساعة جميلة أقضيها مع الروائى البارع الذى أبدع ذهنه صوغ هذه القصة الممتعة ، وإذا بها قد اختفت .. وكنت قد دسستها بين المرتبتين المطروحتين على السرير ، فان أقاربى هؤلاء يخافون الفيران والصراصير ، فيكدسون المراتب على السرير فتعلو جدا ويحتاج المرء إلى كرسى يصعد عليه . ولم أشك فى أن سميحة سرقت روايتى ، وأنها الآن تنعم بها فى سريرها على عادتها حين تريد القراءة . وكانت الساعة الحادية عشرة فقدرت أن تكون قد قطعت مرحلة طويلة وبلغت العقدة التى لا يمكن أن يستريح القلب إذا لم يقف على حلها ، فمضيت إلى غرفتها ونقرت ودخلت ، فقالت : « خير إن شاء الله ! » ، فقلت وأنا أرفع نفسى لأجلس على حرف السرير — فانه عال كما قلت لك —

« أوه لا شىء ... إنما جئت لأتحدث معك قليلاً »

قالت بجفوة : « ليس هذا وقت الحديث فقم من فضلك »

قلت : « بل قولى إنك تقرئين رواية (السم فى الدسم) .. أليست بديعة ؟ »

فاطمأنت لظنها أنى فرغت منها ، فى وسعها الآن أن تمضى فى قراءتها من غير أن تخاف أن أقطع عليها — بالسرقة أو الخطف — حلاوة المتعة ، ورأيت أمارات هذا الاطمئنان فى وجهها ففرحت فان الانتقام يكون أوقع إذا خيب أملاً قوياً ، وأطلتُ الحديث فسئمت واشتهت أن تعود إلى روايتها ، وقالت : « هل تنوى أن تنام هنا الليلة ؟ إذا كنت تنوى هذا فقل لى لأنتقل إلى غرفة أخرى ! »

ونهضتُ عن السرير ومضت إلى الشرفة ففتحتها وأطلت منها ، فلمحت الرواية تحت الوسادة فما أسرع ما دسستها فى جيبى ، ثم قلت وأنا أمضى إلى الباب : « إذا كنت تكرهين وجودى إلى هذا الحد ، فانى ذاهب إلى حيث ... »

فقالت من الشرفة : « ألقت » وضحكت

فلم يسؤنى ذلك ، فان الذى يضحك أخيرا يضحك كثيراً كما يقول الانجليز على ما حدثنا معلمنا ؛ وأوصدت باب غرفتى بالمفتاح ، واستوثقت منه بهزه مراراً وبقوة لأرى هل يستطيع محنق مغيظ أن يكسره ، ثم قعدت على كرسى وراء الباب ، ورحت أنتظر

ولم يطل انتظارى ، فقد اهتز الباب فصحت وأنا أتكلف الفزع : « من ؟ »

قالت : « افتح من فضلك ! »

قلت : « إذا كنت تنوين أن تقضى الليل فى هذه الغرفة فقولى لى لأنتقل إلى سواها »

قالت : « لا تكن فظاً ... لماذا سرقت الرواية ؟ »

قلت « بضاعتنا ردت إلينا .. هل عرفت من القاتل .. لعلك تظنين أنه « رودلف » . كما كان المحققون يتوهمون ؟ ؟ كلا يا فتاتى ! ... إن السر أعمق وأخفى من ذلك وإن الروائى لبارع حقاً .. والآن أرجو أن تذهبى فقد بلغت الفصل الذى يشق صبر

المرء إذا لم يتمه فى مثل لمح البصر .. إذهبى ونامى يا حبيبتى واحلمى «بالصينى» فان له لدخلاً فى الأمر وعلاقة بالسر »

قالت : « صحيح ؟ . »

قلت : « طبعاً .. لقد عرفت ذلك منذ دقيقة واحدة »

قالت : « ألا تخبرنى من القاتل ؟ ؟ إنى أكاد أجن ولا أستطيع أن أنام حتى أعرف هذا ، فكن لطيفاً واخبرنى »

قلت : « حتى تكونى أنت لطيفة »

قالت : « ما ذا تطلب قل وخذ وهات الرواية »

قلت : «الرواية كلها ؟؟ لا !. إن ثمنها غال جداً ... على أنى بعد التفكير العميق أرى أن المساومة لا تليق ولهذا أرفض كل ما تعرضينه كائناً ما كان »

قالت برقة : « ترفض أن تعلم أنى . . . أنى . . . أنى . . . أحبك ؟ » (بصوت خافت)

فانتفضت واقفاً وصحت « إيه ؟ »

قالت : « لا تصح هكذا . . »

ووضعت فمها فى ثقب المفتاح وهمست : « يا عبيط . . إنى أحبك .. هل تفهم ؟ . وأنوى أن أتزوجك على رغم أنفك ؟ . . فتضع لهذه المنافسة السخيفة حداً ونستطيع حينئذ أن نقرأ الروايات البوليسية كلها معاً .. تقرأ لى فأسمع .. وأقرأ لك فتسمع »

فاعترضت وقلت : « ولكنى قد أحب أن أسرع وأقلب بضع صفحات ليطمئن قلبى ، ولا تحبين أنت ذلك فيقع الخلاف »

قالت : « كلا .. على كل حال .. سأكون واثقة أن الرواية باقية فى البيت فأنا أتعهد لك أن أقدمك على نفسى وأتركك تسرع أو تبطئ كما تحب .. وحسبى أن تترك لى فتات المائدة »

فأثر فى نفسى هذا الاخلاص والايثار .. وأى إيثار أعظم ، وأى تضحية أكبر ، من أن تتركنى أقرأ — أو أتم — رواية بوليسية قبلها ؟ ؟ هذا اخلاص وإيثار لم يسمع — أو على الأقل لم أسمع أنا — بمثلهما . فلا عجب إذا كنت قد فتحت الباب بسرعة وفتحت مع الباب ذراعىّ لها فدخلت فى ذراعى قبل أن تدخل من الباب

وكان لا بد أن أجزيها إخلاصاً باخلاص ، وإيثاراً بإيثار ، فدفعت إليها الرواية وقلت : « إقرئيها قبلى يا نور العين »

ابراهيم عبد القادر المازنى

صور سياحية

٣ ـ معاهد باريس

الحى الجامعى والمدينة الجامعية ومعجم باريس

بقلم سائح متجول

لا ريب أن ما تتمتع به فرنسا وباريس فى مصر من حب وتقدير يرجع قبل كل شىء إلى غرسها العلمى والثقافى ؛ وإذا كان هذا الغرس يذبل اليوم ويتضاءل لأن عوامل كثيرة جديدة دخلت فى الثقافة المصرية الحديثة ، فان الثقافة والآداب الفرنسية ما زالت تحتفظ فى مصر بكثير من جاذبيتها وسحرها

لقد تلقى كثير من المصريين علومهم بفرنسا ، وما زالوا لثقافتها رسلاً مخلصين

بيد أنه من حسن الطالع أن هذا الجيل المتعصب لثقافته الأجنبية يضمحل اليوم ؛ ذلك أن مصر يجب ألا تكون ميداناً بعد لنضال الثقافات الغربية التى تبغى دائماً من بسط نفوذها العلمى والثقافى أغراضاً خاصة ، ويجب أن تسير مصر فى تكوين ثقافتها القومية على مبدأ الاختيار الحر بعيداً عن دعاية أولئك الرسل المتعصبين

إن فرنسا تتمتع منذ الأحقاب بسمعة جامعية وعلمية راسخة ، وما زالت باريس بجامعتها الشهيرة كعبة الطلاب من سائر الأنحاء والأمم ، وما زال حيها الجامعى أو الحى اللاتينى على تقشف مظهره من أشهر أحيائها وأجدرها بالحب والعطف ، وأغناها بالذكريات

ففى الحى اللاتينى يتفتح الذكاء الفرنسى ، وفيه تشع العبقرية الفرنسية ، وفيه ينهل ألوف من الشباب الأجنبى مورد الثقافة الرفيعة ، ويلمسون كثيراً من نعم النظم الديموقراطية التى تسود أفق الحياة العامة فى فرنسا

وفدنا على باريس فى صميم الصيف والحياة الجامعية معطلة ، فلم يتح لنا أن نرى شيئاً من مظاهر نشاطها ، ولكننا مع ذلك طفنا بأرجاء الحى الجامعى مراراً ولمحنا آثار الصبغة الجامعية تطبع الحى فى معالمه ، وفى فنادقه ومقاهيه ، ومظاهر حياته المتواضعة

يشغل الحى الجامعى ركناً من أقدم أركان باريس وأكثرها